القضايا البلاغية لدى ابن خلدون

د. يوسف بن عبدالله العليوي
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ا القضايا البلاغية لدى ابن خلدون

د. يوسف بن عبدالله العليوي
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يعد ابن خلدون –رحمه الله– واحدًا من العلماء المفكرين في تاريخ الأمة الإسلامية والعربية، ولقد نال اهتمامًا كبيرًا بسبب ما قدمه من أفكار عظيمة في مقدمته الشهيرة. وفي هذا الكتاب حظي علم البلاغة بتناول ابن خلدون له، ضمن حديثه عن العلوم وأصنافها باعتبارها طبيعية في العمران البشري.

وقد تناول البحث من قضايا البلاغة عنده: مفهوم البلاغة، ووظيفتها، وعلاقة الفصاحة بها، والملكة البلاغية: فائدتها واكتسابها، وعلم البلاغة والتأليف فيه، والحاجة إلى علم البلاغة، والخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية.

ويعلي ابن خلدون شأن البلاغة بالمفهوم الذي استقر عليه البلاغيون، من أن حقيقة البلاغة تكون في مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ويعدها بذلك أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.

وتناول البحث قضايا الملكة البلاغية، وقد عَدّ ابن خلدون المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، وليس المُحْدَثون. ويرى أن حصول الملكة البلاغية له فائدتان: الأولى: القدرة على التكلم بأساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم، للتأثير في المخاطب. والثانية: البصر ببلاغة الكلام وصوابه، والقدرة على نقده وتمييز حسنه من رديئه. ويفرق بين تحصيل الملكة البلاغية وتحصيل علم البلاغة.

وتناول أهمية علم البلاغة وثمرته وصلته ببعض العلوم مما يبين حاجة أهلها إليه، ومن ذلك: فهم الإعجاز القرآني، وتفسير القرآن الكريم، واستنباط الأحكام الشرعية، وحاجة الكتّاب والموقّعين، والتأثير في المخاطَب.

ومن القضايا التي أثارها ابن خلدون: الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية، من شعر، ونثر، والتمايز والتداخل فيما بينها، وهو يرى أن لكل فن أساليب يختص بها ويتميز دون غيره. وهو بذلك يمثل امتدادًا لطرح هذه القضية في التراث البلاغي والنقدي.

وقدم ابن خلدون في هذه القضايا أفكارًا وأثار تساؤلات. تناولها البحث بالعرض والمناقشة، وبين مدى تفرده بها أو تأثره بغيره، في إطار منهج وصفي، وتاريخي.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. أما بعد:

فيعد ابن خلدون -رحمه الله- واحدًا من العلماء المفكرين في تاريخ الأمة الإسلامية والعربية. ولقد نال اهتمامًا كبيرًا بسبب ما قدمه من أفكار عظيمة في (الكتاب الأول) من تاريخه "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". والذي خصه بالحديث عن طبيعة العمران. ونشر (الكتاب الأول) من التاريخ مستقلاً باسم "مقدمة ابن خلدون".

وفي هذا الكتاب حظي علم "البلاغة" بتناول ابن خلدون له في (الباب السادس) الذي خصصه للحديث في (العلوم وأصنافها) باعتبار أن ((العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري))[1]، وتناوله في أكثر من فصل، وخاصة في الفصل (الخامس والأربعين) الذي تناول فيه (علوم اللسان العربي).

وقد قامت دراسات كثيرة متنوعة حول ابن خلدون وما حوته مقدمته من أفكار في علوم شتى[2]، إلا أنني لم أطلع على دراسة عن الفكر البلاغي عنده، إلا إشارات يسيرة في بعض الدراسات التي تناولته لغويًا أو أدبيًا، مما اطلعت عليه[3].

وكان ذلك حافزًا لي أن أتناول ما ذكره ابن خلدون من قضايا البلاغة، وأدرس ما طرحه من أفكار حولها، فكان هذا البحث منتظمًا في تمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، كالآتي:

التمهيد: تعريف بابن خلدون.

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٥٤٢/١.

(٢) ينظر في جمع من الآثار التي تناولت ابن خلدون: موقع ابن خلدون للدراسات الإنسانية والاجتماعية، على الرابط: http://www.exhauss-ibnkhaldoun.com.tn

(٣) من هذه الدراسات: "الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون" للدكتور ميشال زكريا، و"الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون" للدكتور محمد عيد، و"ابن خلدون: ناقد التاريخ والأدب" للدكتور عثمان موافي، و"مفهوم الأدب في الخطاب الخلدوني" للدكتور غسان عبدالخالق.

المبحث الأول: مفهوم البلاغة، ووظيفتها.

المبحث الثاني: الملكة البلاغية.

المبحث الثالث: علم البلاغة والتأليف فيه.

المبحث الرابع: الحاجة إلى علم البلاغة.

المبحث الخامس: الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية.

وأنبه إلى أنه يحلو لبعض الدارسين، المتعصبين لبعض النظريات البلاغية والنقدية الحديثة، أن ينتزع أفكار العلماء المتقدمين من تراثها العربي، ويلبسها لبوسًا محدثًا، كلباس الألسنية أو الأسلوبية أو البنيوية أو غيرها، وكأن تراثنا يحرم عليه أن يأتي بمثل تلك الأفكار، وكأنها حكر على الأواخر من الذين انبهروا بالدراسات الغربية حتى أعمتهم عن تراثهم، وضنوا عليه أن يكون له سبق، وإذا وجد بعضهم هذا السبق جعلوه موافقًا للاحق!

ولذا حرصت على أن أتبع المنهج الوصفي لما قدمه ابن خلدون من أفكار تجاه هذه القضايا البلاغية، بعيدًا عن أي تصنيف له ضمن المناهج والاتجاهات البلاغية والنقدية الحديثة؛ فإن الفكر البلاغي عند ابن خلدون يمثل حلقة من حلقات سلسلة تراثنا البلاغي والنقدي، قبل أن ترد علينا هذه المناهج، التي فيها ما ينفع، وفيها ما يطرح، كما هو نتاج أي جهد بشري في أي عصر من العصور، سواء كان متقدمًا أو متأخرًا، وقد يأتي اللاحق بما لم يأت به السابق، وهذا شأن أكثر العلوم، تتطور وتتكامل مع مرور الزمن، وعباءة البلاغة العربية تتسع لكل ما هو جديد مفيد، كما اتسعت لكل ما هو تراثي مفيد، والحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق بها.

أسأل الله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، ولا يجعله ملتبسًا علينا فنضل، وهو سبحانه ولي التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

التمهيد:

تعريف بابن خلدون

هو ولي الدين، أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خَلدون، وخلدون هذا لقب لخالد بن عثمان الذي دخل مع الفاتحين بلاد الأندلس، واستقر في أشبيلية، ثم انتقلت أسرته فيما بعد إلى بلاد المغرب، ويمتد نسبه إلى الصحابي وائل بن حُجْر ﷺ من عرب حضرموت وملوكها.

ولد في تونس، في غرة رمضان سنة (٧٣٢هـ)، وربي في حجر والده (ت٧٤٩هـ) إلى أن أيفع.

ولم يزل منذ نشأ وناهز مكبًا على تحصيل العلم، حريصًا على اقتناء الفضائل، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته، كما ذكر عن نفسه[1].

حفظ القرآن العظيم، وقرأه بالقراءات السبع، وحفظ قصيدتي الشاطبي (ت٧٩٠هـ): اللامية في القراءات، والرائية في الرسم، وكتب الأشعار الستة، والحماسة للأعلم الشنتمري (ت٤٧٦هـ)، وشعر أبي تمام (ت٢٣١هـ)، وطائفة من شعر المتنبي (ت٣٥٤هـ)، ومن أشعار كتاب الأغاني، وغيرها من منظومات العلوم ومتونها.

ودرس على شيوخه علومًا وكتبًا جمة، وقد ذكر جملة من شيوخه وما أخذ عنهم من العلوم، فقال:

((قرأت القرآن العظيم على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن بُرّال الأنصاري... وبعد أن استظهرت القرآن العظيم عن حفظي قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة... وعرضت عليه رحمه الله قصيدة الشاطبي "اللامية" في القراءات، و"الرائية" في الرسم... وعرضت عليه كتاب "التفسير لأحاديث الموطأ" لابن عبد البر... ودرست عليه كتبًا جمة

---

(١) التعريف بابن خلدون، لابن خلدون، بذيل تاريخه: ٧/ ٥٣٢.

مثل: كتاب "التسهيل" لابن مالك. و"مختصر ابن الخطيب" في الفقه، ولم أكملهما بالحفظ...

وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي، وعلى أستاذي تونس. منهم: الشيخ أبو عبد الله محمد العربي الحَصايري، وكان إمامًا في النحو... ومنهم: أبو عبد الله محمد الشواش المزازي. ومنهم: أبو العباس أحمد بن القصّار، كان ممتعا في صناعة النحو... ومنهم: إمام العربية والأدب بتونس، أبو عبد الله محمد بن بحر، لازمت مجلسه، وأفدت عليه، وكان بحرًا زاخرًا في علوم اللسان...

ولازمت أيضًا مجلس إمام المحدثين بتونس، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي آشي، صاحب الرحلتين، وسمعت عليه "كتاب مسلم بن الحجاج" إلا فوتًا يسيرًا من كتاب الصيد، وسمعت عليه كتاب "الموطأ" من أوله إلى آخره، وبعضًا من الأمهات الخمس، وناولني كتبًا كثيرة في العربية والفقه، وأجازني إجازة عامة، وأخبرني عن مشايخه...

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة، منهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحيّاني، وأبو القاسم محمد القصير، وقرأت عليه كتاب "التهذيب" لأبي سعيد البرادعي: مختصر المدونة، وكتاب المالكية، وتفقهت عليه.

وكنت في خلال ذلك أنتاب مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، مع أخي عمر، رحمة الله عليهما، وأفدت منه، وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب "الموطأ" للإمام مالك... إلى غير هؤلاء من مشيخة تونس، وكلهم سمعت عليه، وكتب لي، وأجازني.

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن عندما ملك أفريقية سنة ثمان وأربعين جماعة من أهل العلم، كان يلزمهم شهود مجلسه، ويتجمل بمكانهم فيه، فمنهم: شيخ الفتيا بالمغرب وإمام مذهب مالك أبو عبد الله محمد بن سليمان السطّي، فكنت انتاب مجلسه، وأفدت عليه...

ومنهم: كاتب السلطان أبي الحسن وصاحب علامته التي توضع أسفل مكتوباته، إمام المحدثين أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي. لازمته، وأخذت عنه سماعًا وإجازة الأمهات الست، وكتاب "الموطأ". و"السير" لابن اسحق. وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وكتبًا كثيرة...

ومنهم: الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي، إمام المقرئين بالمغرب. قرأت عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع من طريق أبي عمرو الداني وابن شريح، لم أكملها، وسمعت عليه عدة كتب، وأجازني بالإجازة العامة.

ومنهم شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي... لما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن لزمته، وأخذت عنه العلوم العقلية، والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، وكان رحمه الله تعالى يشهد لي بالتبريز في ذلك))[1].

قال عنه ابن حجر (ت٨٥٢هـ): ((برع في العلوم، وتقدم في الفنون، وبهر في الأدب والكتابة... وصنف "التاريخ الكبير" في سبع مجلدات ضخمة، ظهرت فيه فضائله، وأبان فيه عن براعته...))[2].

وتولى تدريس عدد من العلوم منها: الحديث، في "موطأ مالك"، وغيره، والفقه، في كتب المالكية، كـ"مختصر ابن الحاجب"، و"مدونة سحنون"، و"نوادر ابن أبي زيد"، و"تبصرة أبي الحسن اللخمي"، وغيرها، وأصول الفقه، في "مختصر ابن الحاجب"، والتاريخ، والحساب، والهندسة، وغيرها من العلوم.

وقد ولاه السلطان عام (٧٩١هـ) وظيفة "كرسي (شيخ) الحديث" بالمدرسة الصَرْغُتمشية، وبدأ فيها بتدريس "الموطأ". ودرّس أيضًا بمصر في الجامع الأزهر، والمدرسة البيبرسية، والمدرسة القمحية.

---

(١) التعريف بابن خلدون، بذيل تاريخه: ٧/٥١١-٥١٤.

(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر: ٢/٣٣٩.

وانتفع به وتتلمذ عليه علماء، من أبرزهم: الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). وذكر أن ابن خلدون أجازه إجازة عامة[1]. ومنهم: محمد بن أبي بكر بن جماعة (ت٨١٩هـ)، والقاضي جمال الدين بن مقداد الأفقهسي الأقفاصي، الفقيه الأصولي المفسر (ت٨٢٣هـ)، والقاضي بدر الدين الدماميني، الفقيه النحوي (ت٨٢٧هـ)، والقاضي شمس الدين محمد بن أحمد البساطي، مشارك في كثير من العلوم (ت٨٤٢هـ)، والفقيه شمس الدين محمد بن عمار، المعروف بابن عمر، مشارك في كثير من العلوم (ت٨٤٤هـ)، والمؤرخ تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ)، والمسند الفقيه برهان الدين إبراهيم بن صدقة المقدسي (ت٨٥٢هـ).

وكتب مؤلفات عديدة، من أشهرها مما هو مطبوع: تاريخه "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر"، و"لباب المحصل" تلخيص لـ"محصل الرازي"، و"شفاء السائل لتهذيب المسائل" في التصوف، و"مزيل الملام عن حكام الأنام" رسالة للقضاة، وغيرها.

وكانت له وجاهة ومكانة عند بعض سلاطين الأندلس والمغرب، فتقلد وظائف كتابية لبعضهم في تونس وفاس، منذ عام (٧٥١هـ). وفي هذه المدة لم يسلم من الوشايات، فسجن ما بين عامي (٧٥٨هـ-٧٦٠هـ) بتهمة التعاون مع الأعداء على سلطان فاس، ثم أفرج عنه بعد وفاة السلطان.

وتولى في عام (٧٦٦هـ) الحجابة لأمير بجاية، وهو منصب لا يعلوه إلا منصب الأمير، واختصه في الوقت نفسه بالخطابة والتدريس في جامع القصبة، أكبر مساجد الإمارة.

وبين عامي (٧٧٦هـ-٧٨٠هـ) تفرغ في قلعة ابن سلامة بوهران من بلاد الجزائر، وكتب فيها تاريخه الشهير "العبر".

ثم رجع إلى تونس، وبقي إلى عام (٧٨٤هـ)، حيث عزم على الحج، فخرج إلى مصر، واستقر بها، وجلس للتدريس في الجامع الأزهر.

---

(١) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، لابن حجر: ٣/١٥٩.

وتقلد فيها قضاء المالكية عام (٧٨٦هـ). وبعد عام من توليه عُزل عنه بسعاية الخصوم عند السلطان.

ثم ولاه السلطان في العام نفسه وظيفة "شيخ بيت الخانقاه" مشرفًا على مساكن الزهاد والفقراء، والأوقاف والأربطة التابعة لهم.

ثم تقلد قضاء المالكية للمرة الثانية عام (٨٠١هـ)، ثم عزل في منتصف المحرم من عام (٨٠٣هـ).

ثم تقلد للمرة الثالثة في شعبان من عام (٨٠٣هـ)، ثم عزل في رجب من عام (٨٠٤هـ).

وفي ذي الحجة من عام (٨٠٤هـ) رجع السلطان إلى توليته القضاء، ثم عزل في ربيع الأول من عام (٨٠٦هـ).

وفي شعبان من عام (٨٠٧هـ) عاد إلى القضاء، ولم يلبث فيه إلا نحو ثلاثة أشهر، فعزل في ذي القعدة.

ثم عاد إلى القضاء في السادس عشر من رمضان عام (٨٠٨هـ) ولم يلبث إلا أيامًا يسيرة حتى توفي في اليوم الخامس والعشرين، رحمه الله وعفا عنه وغفر له[1].

* * *

(١) ينظر في ترجمة ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، لابن خلدون. مذيلاً بتاريخه: ٧/٥٠٣-٧٤٢. ودرر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، للمقريزي: ٣٨٣-٤١٠، والمجمع المؤسس في المعجم المفهرس، لابن حجر: ١/١٥٧-١٦٠، وإنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر: ٢/٣٣٩-٣٤٠. والمنهل الصافي، لابن تغري بردي: ٧/٢٠٥-٢٠٩. والضوء اللامع، للسخاوي: ٤/١٤٥-١٤٩.

المبحث الأول: فهوم البلاغة

أولاً: مفهوم البلاغة:

حظيت "البلاغة" باهتمام كبير في تاريخ العرب منذ العصر الجاهلي. وشهد هذا التاريخ محاولات كثيرة لوضع تعريف لها وتحديد لمعالمها. وتنبئنا المؤلفات البلاغية والأدبية المتقدمة والمتأخرة عن مواقف وأقوال كثيرة في هذا الشأن[1]. إلى أن استقر البلاغيون على تعريف القزويني (ت ٧٣٩هـ) لبلاغة الكلام بأنها: ((مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته))[2]. وهو تعريف فيه دقة وشمول، يلخص ما قاله السابقون في تعريف "البلاغة". وتبعه عليه مَن بعده من البلاغيين من شراح التلخيص وغيرهم[3].

وجرى ابن خلدون في مفهوم "البلاغة" على ما استقر عليه البلاغيون. فهو يرى أن حقيقة البلاغة تكون في مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ولهذا فإن لكل مقام مقالاً ((فإن المقامات مختلفة. ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز. أو حذف أو إثبات. أو تصريح أو إشارة أو كناية واستعارة))[4].

ويستشهد ابن خلدون على تنوع المقال بحسب مقتضى الحال بقصة يذكرها عن عيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ). قال ابن خلدون: ((واعتبر ذلك بما يُحكى عن عيسى بن عمر. وقد قال له بعض النحاة: إني أجد في كلام العرب تكرارًا، في قولهم: زيد قائم. وإن زيدًا قائم. وإن زيدًا لقائم. والمعنى واحد. فقال له: إن معانيها مختلفة. فالأول لإفادة الخالي

---

(١) ينظر: البيان والتبيين. للجاحظ: ٨٨/١، ٩٢، ٩٦، ١١٣، ١٠٦/٤. وكتاب الصناعتين. للعسكري: ٨-٣٩. والعمدة. لابن رشيق: ٢٤١/١-٢٥٠. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية. لمطلوب: ٤٠٢/١. والبلاغة والفصاحة. لفياض: ١٩-٦٠.

(٢) الإيضاح. للقزويني: ١٢٢/١.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ١٢٢/١. والبلاغة والفصاحة. لفياض: ٥٨-٥٩.

(٤) المرجع السابق: ٧٨٢/١.

الذهن من قيام زيد. والثاني لمن سمعه فتردد فيه، والثالث لمن عُرف بالإصرار على إنكاره. فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال))[1].

وقد بحثت عن هذه القصة التي يحكيها ابن خلدون عن عيسى ابن عمر في كثير من كتب النحو والأدب والبلاغة والتراجم، ولم أجد لها ذكرًا، لكن يذكرها بعض البلاغيين من قَبل عن الكندي المتفلسف (ت٢٥٢هـ) وأبي العباس: المبرد (ت٢٨٥هـ)، أو ثعلب (ت٢٩١هـ)[2].

وابن خلدون يعلي شأن البلاغة بهذا المفهوم، ويعدها ((أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته))[3]، ويرى أن الكلام إذا لم يشتمل على شيء من المطابقة لمقتضيات الأحوال ((فليس من جنس كلام العرب؛ فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإعراب والإبانة))[4]، وأكّد في موضع آخر أن من لم يكن كذلك ((فهو مقصر عن البلاغة، ويلتحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم. وأجدر به أن لا يكون عربيًا، لأن العربي هو الذي يطابق بإفادته مقتضى الحال))[5].

---

(١) المرجع السابق: ٧٦٦/١.

(٢) روي عن ابن الأنباري (٣٢٨هـ) أن الكندي المتفلسف (٢٥٢هـ) ركب إلى أبي العباس، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوًا. فقال أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك. فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم. فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. وينظر في هذه الحادثة: دلائل الإعجاز: ٣١٥. و(أبو العباس) كنية لعالمين متعاصرين، هما: المبرد (٢٨٥هـ)، وثعلب (٢٩١هـ). واختلف في تعيين صاحب الكنية في هذه القصة، وينظر في تحقيق ذلك بحث الدكتور هارون المهدي ميغا: قصة الفيلسوف الكندي وأبي العباس حول أضرب الخبر، بحث بمجلة العرب، ج١و٢، س٤٣، رجب وشعبان ١٤٢٨هـ.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ٨٠٠/١.

(٤) المرجع السابق: ٧٦٠/١.

(٥) المرجع السابق: ٨٠٠/١.

وهو ينطلق في هذا من وظيفة البلاغة؛ لأن الكلام له وظيفتان من حيث إفادة المعنى:

الأول: ما يفيد "أصل المعنى"، وهو ((دلالة الألفاظ من المفرد والمركب))، وهذه وظيفة الإعراب.

والثاني: ما يفيد "كمال المعنى"، وهو ((دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب، وإنما هي هيئات وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ، كل بحسب ما يقتضيه مقامه))[1]. وهذه وظيفة البلاغة، التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال؛ لأن المتكلم يقصد بكلامه أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة، ولا يكون ذلك إلا بالمطابقة[2]. ولذا فسر ابن خلدون البلاغة في موضع بأنها ((مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه))[3]. وقال: ((اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى. وأما إذا كان مهملاً فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة))[4].

وعلى هذا فإن التركيب البليغ عند ابن خلدون هو صدى لسياق المعاني في النفوس والأذهان، وتصوير لما في المقام من أحوال وهيئات.

وهو بذلك يوافق ما قرره عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) من قبل في حديثه عن "النظم"، من أن ترتيب الألفاظ في النطق يجري حسب ترتيب المعاني في النفس. وقد عقد فصلاً في الفروق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة، بيّن فيه ((أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضٍ عن معنى، ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسمًا من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه... وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب

---

(١) المرجع السابق: ٧٦١/١.

(٢) ينظر: المرجع السابق: ٨٠٠/١.

(٣) ينظر: المرجع السابق: ٧٧٥/١.

(٤) المرجع السابق: ٧٩٩/١.

ترتيب المعاني في النفس... والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل))[1]. ثم يجري في تقرير هذا الرأي إلى أن يلخص في نهاية الفصل ما أراده بقوله: ((لا يتصور أن تعرف للفظ موضعًا من غير أن تعرف معناه. ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبًا ونظمًا، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك. فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرًا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق))[2].

وعلى حسب قدرة المتكلمين في مطابقة الكلام لمقتضى الحال تتفاوت طبقاتهم في البلاغة قوة أو ضعفًا، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا قائلاً: ((وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان))[3]. وهو بذلك يوافق البلاغيين من قبل، فقد قال السكاكي (ت٦٢٦هـ): ((ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه: مقتضى الحال))[4]، ومن قبلهما قال ابن رشيق (ت٤٥٦هـ) في سياق ما يحتاج إليه الشاعر: ((ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان، ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا، وقد قيل: لكل مقام مقال))[5].

---

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٤٩-٥٠.

(٢) المرجع السابق: ٥٣-٥٤.

(٣) ينظر: تاريخ ابن خلدون: ٧٩٢/١.

(٤) مفتاح العلوم، للسكاكي: ١٦٨، وينظر: شروح التلخيص: ١٢٤/١.

(٥) العمدة، لابن رشيق: ١٩٩/١.

ويرجع ابن خلدون تفاوت طبقات الناس في البلاغة بحسب اكتسابهم للملكة البلاغية، قال: ((فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة))[1].

والحديث عن الملكة البلاغية عند ابن خلدون يطول، ولذا عقدت له مبحثًا مستقلاً.

ثانيًا: علاقة الفصاحة بالبلاغة.

سبق في بداية المبحث أن ذكرت تعريف القزويني (ت٧٣٩هـ) لبلاغة الكلام أنها: ((مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)).

وقد نص القزويني في هذا التعريف على اشتراط الفصاحة للبلاغة، وقال الدسوقي (ت١٢٣٠هـ): ((إنما اشترط المصنف هذا الشرط الأخير مع أنه لم يذكره غيره كصاحب المفتاح، لأن البلاغة عنده لا تتحقق إلا بتحقق الأمرين، وظاهره أن الفصاحة لا بد منها مطلقًا... وهو كذلك على التحقيق))[2].

وليس الأمر كما قال الدسوقي، فإن اشتراط الفصاحة للبلاغة موجود في كلام المتقدمين على القزويني، الذين يرون أن بين (الفصاحة) و(البلاغة) عمومًا وخصوصًا، وأن الكلام لا يكون بليغًا حتى يكون فصيحًا، وهو معنى قولهم: كل كلام بليغ فصيح[3]. وقال العلوي (ت٧٤٩هـ): ((اعلم أنه لا خلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان أن الكلام لا يوصف بكونه بليغًا إلا إذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الألفاظ، ولا يكون بليغًا إلا بمجموع الأمرين كليهما))[4].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٤/١.

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر السعد: ١٢٢/١.

(٣) ينظر: كتاب الصناعتين، للعسكري: ٧، وسر الفصاحة، لابن سنان: ٥٩، والمثل السائر، لابن الأثير: ٩٤/١.

(٤) الطراز، للعلوي: ١٢٨/١.

وإذا كان الدسوقي أراد أنه لم ينص أحد في تعريفه على اشتراط الفصاحة بلفظها فليس الأمر كذلك. فقد نص على ذلك ابن وهب (ت ٣٣٥هـ) حيث قال في تعريف البلاغة: ((وحَدّها عندنا: القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان))، قال: ((وزدنا (فصاحة اللسان) لأن الأعجمي واللحّان قد يبلغا مرادهما بقولهما، فلا يكونان موصوفين بالبلاغة))[١].

والفصاحة التي يتحدث عنها البلاغيون تكون بوضوح الكلام، وعذوبة لفظه، وسهولة نطقه، وبعده عن التعقيد، وخلوه من اللحن بمخالفة القياس الصرفي والنحوي[٢].

وابن خلدون لم يفرد حديثًا عن الفصاحة بهذا المصطلح، ولم ينص على اشتراطها في بيانه لمفهوم البلاغة، لكنه ذكر معاييرها التي يذكرها البلاغيون في حديثهم عن الفصاحة، وهي عنده معايير لبلاغة العرب، تتأثر البلاغة بها وجودًا أو عدمًا، وقد جاء حديثه عنها في بيان شروط عمل الشعر وإحكام صناعته، قال: ((ولا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب، والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها؛ فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة...

ويجتنب أيضًا المعقد من التراكيب جهده، و إنما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم، وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فإن فيه نوع تعقيد على الفهم...

وليجتنب الشاعر أيضًا الحوشي من الألفاظ، والمقعّر، وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال؛ فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة، وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة؛ فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضًا، فيصير مبتذلاً، ويقرب من عدم الإفادة،

---

(١) البرهان في وجوه البيان، لابن وهب: ١٦٣.

(٢) ينظر في تعريف الفصاحة ومعاييرها: سر الفصاحة، لابن سنان: ٥٨ و٦٣، والمثل السائر، لابن الأثير: ١/ ٩٠-٩٤، وشروح التلخيص: ١/ ٨٠-١٢١، ومعجم المصطلحات البلاغية، لمطلوب: ٣/ ١١٠.

كقولهم: النار حارة و السماء فوقنا. وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم الإفادة يبعد عن رتبة البلاغة إذ هما طرفان))[1].

وحينما تناول وصف البلاغة في اللسان العربي (المضري) ذكر أن العرب: ((لكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإعراب والإبانة))[2]. و(كمال الإعراب والإبانة) من الفصاحة التي يشترطها البلاغيون لتحقق بلاغة الكلام.

ويتبين من هذه الأقوال أن المعايير التي يجعلها البلاغيون للفصاحة يراها ابن خلدون لازمة لتحقق البلاغة في اللسان العربي، وبهذا لا يخرج ابن خلدون في مفهومه للبلاغة عن مفهوم البلاغيين حينما يشترطون تحقق المطابقة مع الفصاحة.

إلا أن هذه النتيجة يشكل عليها تلك الأقوال التي يرى فيها ابن خلدون صراحة أنه لا صلة لإعراب الكلام بالبلاغة، وأن شعر العامة في عهده الذي انحرف عن سنن العرب في إعرابهم يصح أن يوصف بالبلاغة إذا طابق مقتضى الحال، ولو لم يكن معربًا، وأن الشعراء يتفاوتون في طبقات البلاغة بحسب مراعاة المطابقة، لا بحسب الإعراب والإخلال به، ومما قاله وهو يتحدث عن أشعار العرب أهل الأمصار في عهده: ((أما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيعرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض، على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه... ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة، وفيهم الفحول والمتأخرون.

والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصًا علم اللسان يستنكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها. وهذا إنما أُتي من فقدان الملكة في لغتهم، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه و ذوقه ببلاغتها، إن كان سليمًا من الآفات

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/٧٩١-٧٩٢.

(٢) المرجع السابق: ١/٧٦٠.

في فطرته ونظره، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس، وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب))[1].

وأكد هذا الرأي حينما ذكر شعر الجازية الهلالية التي كلفت بالشريف شكر بن أبي الفتوح (ت ٤٥٣هـ) وكلف بها، بعد أن فرق أهلها بينهما، وارتحلوا بها عنه، قال ابن خلدون: ((فارقوه، فرجع إلى مكانه من مكة، وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وإنها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفه إلى أن ماتت من حبه، ويتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعفي عن خبر قيس وكُثيِّر، ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المباني متفقة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع، لم يفقد فيها من البلاغة شيء، وإنما أخلوا فيها بالإعراب فقط، ولا مدخل له في البلاغة كما قررناه لك في الكتاب الأول من كتابنا هذا، إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها، ويستنكفون عنها؛ لما فيها من خلل الإعراب، ويحسبون أن الإعراب هو أصل البلاغة، وليس كذلك))[2].

وهذه القاعدة (لا مدخل للإعراب في البلاغة) التي يقررها ابن خلدون في هذه النقول تبدو معارضة لما قرره في النقول السابقة من أن بلاغة العرب تأتي ((بعد كمال الإعراب والإبانة))، وأن الشعر ((لا يستعمل فيه من الكلام إلا الأفصح من التراكيب، والخالص من الضرورات اللسانية، فليهجرها؛ فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة)).

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٨٠٥-٨٠٦.

(٢) المرجع السابق: ٦/ ٢٥.

والذي يبدو لي أن ابن خلدون غير متعارض في قوليه، لاختلاف سياق الكلام بين الرأيين، ولكون المقدمات التي ينطلق منها تؤدي إلى تقرير الرأيين، وإن كان لم يتحرز من الإطلاق، ولم يحرر العبارة بدقة.

والذي ينطلق منه ابن خلدون أن لهجات العرب في عهده -وقد انحرفت عن لسان العرب المضري- تعد لغات مستقلة عن لغة العرب المضرية، كما استقلت اللغة المضرية عن اللغة الحميرية، ولكل لغة رسومها وكيفياتها في الدلالة على المعاني، وقد عقد فصلاً ((في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير))[1]، وقال: ((تغير عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته، تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافًا لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها... ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها، كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر))[2].

وعقد فصلاً ((في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها)) وقال: ((اعلم أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة، ولا بلغة أهل الجيل، بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا، وهي عن لغة مضر أبعد. فأما إنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحنًا. وهي مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم. فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه. و

---

(١) المرجع السابق: ١/٧٦٧-٧٦٨.

(٢) المرجع السابق: ١/٧٦٨.

هذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد))[1].

وإذا كانت لهجات العرب التي انحرفت عن اللسان المضري تعد ألسنة مستقلة عند ابن خلدون فإن ((لكل لسان أحكام في البلاغة تخصه)) كما قال[2]. ولهذا فلا يصح عنده أن تجرى أحكام النحو التي قننت للسان المضري على غيره من الألسنة العربية. على أنه يرى أن لغة العرب لعهده لم يتغير فيها إلا حركات الإعراب. قال: ((نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري. ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول. فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير. وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد))[3].

ثم إنه بعد ذلك يقرر أن ((البيان والبلاغة في اللسان المضري أكثر وأعرق؛ لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال -ويسمى: بساط الحال- محتاجًا إلى ما يدل عليه. وكل معنى لا بد وأن تكتنفه أحوال تخصه. فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود؛ لأنها صفاته. وتلك الأحوال في جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما في اللسان العربي فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها. من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة إعراب. و قد يدل عليها بالحروف غير المستقلة. ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه. فكان الكلام العربي لذلك أوجز وأقل ألفاظًا وعبارة من جميع الألسن. وهذا معنى قوله ﷺ: "أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. واخْتُصِرَ لِي الكَلَامُ اخْتِصارًا"[4]))[1]. وهذا التقرير يتفق مع ما سبق ذكره في الحديث عن مفهوم

---

(1) المرجع السابق: ١/٧٧٠.

(2) المرجع السابق: ١/٧٨٤.

(3) المرجع السابق: ١/٧٦٦. وينظر: ١/٧٦٧.

(4) الحديث بهذا اللفظ قال فيه الهيثمي في مجمع الزائد: ١/٤٣٦ : ((رواه أبو يعلى. وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي. ضعفه أحمد وجماعة)). وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٦/٣٩٢.

البلاغة من كون ابن خلدون يعلي شأن هذا المفهوم. ويعد البلاغة به ((أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته)). ويرى أن الكلام إذا لم يشتمل على شيء من المطابقة لمقتضيات الأحوال ((فليس من جنس كلام العرب)).

* * *

=برقم (٢٨٦٤). والجملة الأولى من الحديث "أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ" وفي رواية "بُعِثْتُ" وفي أخرى: "أُعْطِيتُ" أخرجها البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد والسير. باب قول النبي ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر. برقم (٢٩٧٧). ومسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة. برقم (٥٢٣).

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٦/١.

المبحث الثاني:

الملكة البلاغية

يعد ابن خلدون من أوائل من تحدث عن الملكة اللسانية، وفصل القول فيها، حتى عُدّ المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، وليس المُحدَثون[1].

والحديث عن اكتساب الملكة البلاغية يتعلق بالحديث عن اكتساب اللغة عمومًا، وقد تناولها اللغويون بالتفصيل في دراسات علم اللغة، كما قامت دراسات تناولت نظرة ابن خلدون إلى "الملكة اللسانية"، ومقارنتها بالنظريات الحديثة[2]، وإنما يهمنا هنا ما خص به ابن خلدون "الملكة البلاغية" فيه بالحديث، وسأعرضه في العناصر الآتية.

أولاً: مفهوم الملكة البلاغية.

الملكة هي: الصفة الراسخة في النفس، بحيث لا تقبل الزوال بسهولة[3].

ويرى ابن خلدون أن الملكة تمر بثلاث مراحل حتى تكون كذلك، قال: ((الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي: صفة راسخة))[4].

وعلى هذا فمعنى أن تكون البلاغة ملكة أن تتمكن في المرء حتى لا يحسن أن يتكلم إلا بها، ولا ينظر في الكلام إلا من خلالها.

---

(١) ابن خلدون وليس تشومسكي المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، للدكتور سعود السبيعي: ٢٩٨.

(٢) ينظر: "الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون" للدكتور ميشال زكريا، و"الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون" للدكتور محمد عيد.

(٣) ينظر: التعريفات، للجرجاني: ٢٩٧، وتاج العروس، للزبيدي: ١٠/١٧٠ مادة "س ج ى"، وتاريخ ابن خلدون: ٢/٢٥٨.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ١/٧٦٤-٧٦٥.

و(حصول ملكة البلاغة) هو معنى (الذوق) عند ابن خلدون[1]. وقد عقد في مقدمة تاريخه فصلاً (في تفسر الذوق في مصطلح أهل البيان. وتحقيق معناه)[2].

ويرى أن إطلاق (الذوق) على (ملكة البلاغة) استعارة، لأن (الذوق) موضوع لإدراك الطعوم. ((لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام. كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه. وأيضًا فهو وجداني اللسان كما أن الطعوم محسوسة له. فقيل له: ذوق))[3].

ثانيًا: فائدة الملكة البلاغية.

حصول الملكة البلاغية له فائدتان عند ابن خلدون:

الأولى: القدرة على التكلم بأساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم. بل لا يكاد من حصل الملكة ينحو في كلامه غير منحى البلاغة التي للعرب. فتكون له البلاغة جبلة وطبعًا. قال ابن خلدون: ((ملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى جودة النظم. وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو رام صاحب هذه الملكة حيدًا عن هذه السبل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه. ولا وافقه عليه لسانه، لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده))[4].

وهذه فائدة تحقق وظيفة البلاغة التي بها يفيد المتكلم سامعه ما في ضميره إفادة تامة. ويدل به عليه دلالة وثيقة. فيحصل التأثير المرغوب فيه.

الثانية: البصر ببلاغة الكلام وصوابه. والقدرة على نقده وتمييز حسنه من رديئه. قال ابن خلدون في المتكلم الذي حصل له الذوق البلاغي: ((وإذا عُرض عليه الكلام حائدًا عن

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ١/ ٧٧٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٧٧٦.

(٤) المرجع السابق: ١/ ٧٧٥-٧٧٦.

أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه، ومَجَّه، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم))[1].

وأذكر هنا للاستشهاد على هذه الفائدة القصة التي تروى عن الأصمعي (ت٢١٦هـ) قال: كنت أقرأ: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم)، وبجنبي أعرابي، فقال: كلام من هذا؟! فقلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقرأت: ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، فقلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا، عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[2]. ويحكى عن الفرزدق (ت١١٠هـ) أنه سمع رجلاً يقرأ: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم)، فقال: لا ينبغي أن يكون هذا هكذا، قال: فقيل له: إنما هو ﴿واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال: هكذا ينبغي أن يكون[3].

ففي هذين الموقفين ما يدل على أن الذي تجري بلاغة العرب في عروقه يميز الأحوال ويدرك ما تقتضيه من الأساليب والأقوال، ويجري في ذلك على منوال قولهم: لكل مقام مقال.

ثالثًا: اكتساب الملكة البلاغية.

يقرر ابن خلدون أولاً أن حصول الملكة البلاغية واكتسابها أمر ممكن شأن سائر الملكات[4]، وينكر على الذين يظنون ((أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابًا وبلاغة أمر طبيعي)) وقال: ((إن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل))[5].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: ٣٨٢.

(٣) ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٧/ ٧٣٠.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٧٧١.

(٥) المرجع السابق: ١/ ٧٧٥.

ويحدد وسائل اكتساب الملكة البلاغية في وسيلتين:

الأولى: كثرة الحفظ والاستماع للكلام البليغ الجاري على أساليب العرب.

ويشمل حفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب والبلغاء من المولدين، في نثرهم وشعرهم.

الثانية: كثرة استعمال الكلام البليغ وتكراره، والتعبير على نحو ما حفظه منه.

قال ابن خلدون: ((اعلم أن الأذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة، وكثر استعماله لها، ومخاطبته بين أجيالها، حتى يحصل ملكتها))[1]. و((على مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما))[2].

إلا أن من يروم تحصيل الملكة البلاغية فإنه ((يحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع، والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب، ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال))[3]. ((فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة))[4].

ويؤكد ابن خلدون أهمية كثرة المحفوظ في تحصيل الملكة: ((حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم))[5].

---

(١) المرجع السابق: ٨٣٩/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٩٦/١.

(٣) المرجع السابق: ٧٧٢/١.

(٤) المرجع السابق: ٧٦٤/١.

(٥) المرجع السابق: ٧٧٤/١.

كما يؤكد أهمية جودة المحفوظ، ((فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة؛ لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها... وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها، فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام))[1].

ولهذا السبب يرجع قصور أساليب الفقهاء وأهل العلوم في البلاغة: ((لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية، الخارجة عن أسلوب البلاغة، والنازلة عن الطبقة؛ لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظ لها في البلاغة، فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر، وكثر، وتلونت به النفس، جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور، وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم))[2]. ولهذا السبب أيضًا قصرت البلاغة في ((شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار و غيرهم، ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب))[3]. ويستشهد على ذلك بشعره. قال: ((ذاكرت يومًا صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب، وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة، فقلت له: أجد استصعابًا علَيّ في نظم الشعر متى رمته، مع بصري به، وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب، وإن كان محفوظي قليلاً، وإنما أتيت -والله أعلم بحقيقة الحال- من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلمية والقوانين التألفية؛ فإني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات وفي الرسم، واستظهرتهما، وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه والأصول، وجمل الخونجي في المنطق، وبعض كتاب التسهيل، وكثيرًا من قوانين التعليم في المجالس، فامتلأ محفوظي من ذلك، وخدش وجه الملكة التي استعددت لها

---

(١) المرجع السابق: ٧٩٦/١-٧٩٧.

(٢) المرجع السابق: ٧٩٧/١.

(٣) المرجع السابق.

بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القريحة عن بلوغها. فنظر إلي ساعة معجبًا، ثم قال: لله أنت! وهل يقول هذا إلا مثلك ؟!))[1].

وفي المقابل فإن جودة المحفوظ والمسموع وعلو طبقته في البلاغة كان سببًا في تفوق بلاغة الإسلاميين من العرب على الجاهليين؛ بسبب سماعهم للقرآن والحديث، وحفظهم لهما، واقتباسهم منهما، وتأثرهم ببلاغتهما. قال ابن خلدون بعد أن قرر أن حصول الملكة اللسانية بكثرة المحفوظ، وجودته بجودته: ((ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية، في منثورهم ومنظومهم. فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرًا من الدولة العباسية، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك – أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة.

والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها. فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقًا من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفًا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة.

---

(١) المرجع السابق: ١/٧٩٧-٧٩٨.

ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا، وكان شيخ هذه الصناعة، أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبين، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه، فسألته يومًا: ما بال العرب الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة من الجاهليين، ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه، فسكت طويلاً ثم قال لي: والله ما أدري! فقلت له: أعرض عليك شيئًا ظهر لي في ذلك، ولعله السبب فيه، وذكرت له هذا الذي كتبت، فسكت معجبًا، ثم قال لي: يا فقيه هذا الكلام من حقه أن يكتب بالذهب))[1].

ومع ما قرره ابن خلدون هنا من أثر القرآن العظيم في تفوق الإسلاميين العرب في البلاغة إلا أنه ذكر في موضع آخر أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة، والاقتصار عليه دون غيره يقصر بصاحبه عن اكتساب الملكة، قال مقارنًا بين لغة أهل أفريقية والمغرب وأهل الأندلس: ((أما أهل أفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة؛ لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه، والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام. وربما كان أهل أفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب بما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه، فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل، إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة... وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة، صاروا بها أعرف في اللسان العربي))[2].

---

(١) المرجع السابق: ١/٧٩٨-٧٩٩.

(٢) المرجع السابق: ١/٧٤١-٧٤٢.

وهذا الكلام يظهر منه أنه يعارض ما قرره سابقًا من أثر القرآن في اكتساب الملكة البلاغية، ولا أجد مخرجًا لهذا التعارض، إلا أن يقال: إن ابن خلدون يرى في عبارته الثانية أن القرآن الكريم له لغته الخاصة به، ولن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن في لغته وبلاغته؛ لكونه معجزًا. فحصول الملكة اللسانية القرآنية متعذرة، ولا يكفي الاقتصار عليه لحصول الملكة في لسان العرب؛ لأن أسلوب القرآن ليس كاللسان العربي. فلا ينشأ عنه في الغالب ملكة، بل لا بد لحصول الملكة التامة في اللسان العربي من رواية شعر العرب وترسلهم ومدارسة العربية.

أما أن القرآن معجز لا يأتي أحد بمثله فهذا حق، وأما أنه لا ينشأ عنه ملكة في اللسان العربي أو أنه لا يؤثر في حصول الملكة ولو اقتصر عليه فهذا فيه نظر، ويعارض ما قرره ابن خلدون أولاً.

وما قرره أولاً حق، وقد قرره البلاغيون والكُتَّاب والأدباء، فحثوا على حفظ كلام الله ﷻ ودوام النظر فيه، وتدبر معانيه، والتدرب على استعماله في غضون الكلام اقتباسًا واستدلالاً. ومن ذلك ما قاله نجم الدين ابن الأثير الحلبي (ت ٧٣٧هـ) للمنشئ والبليغ: ((وليس له وصول إلى بلوغ مقاصده من مخاطبة كل أحد بما يليق به، والتمكن في صناعته إلا إذا استعد لذلك بتحصيل أصول يرجع إليها.

فمنها: أن يحفظ كتاب الله تعالى، إذ له فائدتان في حفظه؛ إحدى الفائدتين: أن يدخل في زمرة من أثنى عليه رسول الله ﷺ بقوله: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَه"[1]... والفائدة الثانية: أن يطلع على أسرار الكتاب العزيز بكثرة تلاوته، ويتدرب باستعماله في مطاوي كلامه، والاستشهاد به في الوقائع المناسبة لكل آية من آياته...))[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، برقم (٥٠٢٧).

(٢) جوهر الكنز لنجم الدين ابن الأثير: ٢٩-٣٠. وينظر: حسن التوسل لشهاب الدين الحلبي: ٧٢. والمثل السائر لابن الأثير: ١/ ٦٠-٦١.

كما أكد أثر حفظ القرآن وتلاوته في اكتساب الملكة اللسانية المتخصصون في التربية وطرق تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية وغيرهم. وأكدته البحوث والدراسات الميدانية التي أجريت لمعرفة مدى تأثير القرآن الكريم في اكتساب اللغة، وأظهرت نتائج إيجابية مهمة[1]. والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

رابعًا: هل كل أحد يكتسب الملكة البلاغية؟

يرى ابن خلدون أن الملكة البلاغية لا تحصل إلا للعربي، أو لأعجمي النسب لكنه نشأ بين العرب وتعلم منهم. أما الأعجمي الذي تمكن من لغة قومه وحصل ملكتها فالغالب أنه لا يحصل له الذوق في بلاغة العرب. وينطلق في ذلك من أن ((الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة))[2]. إلا أنه يستثني من ذلك ((أن تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها إلى العربية. كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم. فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم. ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من العربية))[3].

وبهذا يفسر ابن خلدون حصول الملكة لبعض الأعاجم من أهل اللغة وفرسان العربية كسيبويه (ت١٨٠هـ) وغيره. قال: ((فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجامًا مع حصول هذه الملكة لهم. فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجمًا في نسبهم فقط. وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب. ومن تعلمها منهم، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها. وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم. حتى أدركوا كنه اللغة. وصاروا من أهلها. فهم وإن

---

(١) ينظر: أثر تعلم القرآن الكريم في اكتساب الملكة اللسانية. للعليوي: ١٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ٧٧٧/١.

(٣) المرجع السابق: ٧٥١/١.

كانوا عجمًا في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام، لأنهم أدركوا الملكة في عنفوانها واللغة في شبابها، ولم تذهب آثار الملكة ولا من أهل الأمصار، ثم عكفوا على الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته))[1].

وأشار ابن خلدون إلى أهمية اكتساب الملكة من الصغر، كما قال عن أهل الأندلس: ((أفادهم التفنن في التعليم، وكثرة رواية الشعر، والترسل، ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة، صاروا بها أعرف في اللسان العربي))[2].

خامسًا: بين تحصيل الملكة البلاغية وتحصيل علم البلاغة.

يفرق ابن خلدون بين تحصيل الملكة البلاغية وتحصيل علم البلاغة. ويقرر أن تحصيل العلم بقواعده وقوانينه لا يلزم منه تحصيل الملكة، قال: ((والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، إنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علمًا، ولا يحكمها عملاً))، ويشبه ذلك بمن يعبر لك عن كيفية الخياطة، فإذا طولب بأن يعمل ذلك لم يحسنه[3]. فمن حصل قواعد البلاغة وقوانينها لم يحصل لزامًا ملكة البلاغة، كما أن الملكة البلاغية تحصل من دون تحصيل علومها؛ لأن الملكة أمر وجداني ترسخ في النفس من دون وعي، من خلال البيئة والمحاكاة والتكرار، بخلاف العلم فإنه يكتسب بوعي من المتعلم. قال ابن خلدون: ((لا تقولن إن معرفة قوانين البلاغة كافية لذلك، لأنا نقول: قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية قياسية، تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس. وهو قياس علمي صحيح مطرد، كما هو قياس القوانين الإعرابية. وهذه الأساليب التي نحن نقررها ليست من القياس في شيء، إنما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب، لجريانها على اللسان، حتى

---

(١) المرجع السابق: ٧٧٧/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٤٢/١.

(٣) المرجع السابق: ٧٧٢/١. وينظر: كيف تغدو فصيحًا عف اللسان؟، للطيان، ص ٩.

تستحكم صورتها، فيستفيد بها العمل على مثالها، والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر))[1].

ويبين ابن خلدون أن الملكة وإن كانت تفيد صاحبها البصر ببلاغة الكلام، ونقده، إلا أن هذا نقد انطباعي، قد يعجز صاحبه عن الاستدلال له إلا بتحصيل العلم. قال: ((إذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه، وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك. كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية؛ فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء. وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب، حتى يصير كواحد منهم))[2].

وهذا الرأي من ابن خلدون يؤكد أهمية الجمع بين ترسيخ الملكة، وتحصيل العلم. إلا أن الأهم في تعليم البلاغة أن يتجه به نحو الاهتمام بترسيخ الملكة، أكثر من الاهتمام بتحصيل العلم، وفي ذلك يقول ابن خلدون منكراً الاقتصار على تحصيل العلم: ((أصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل، وبعدت عن مناحي اللسان وملكته، وأفاد ذلك حملتها في الأمصار وآفاقها البعد عن الملكة في الكلية، وكأنهم لا ينظرون في كلام العرب. وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم، فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان))[3].

* * *

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٨٨/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٧٦/١.

(٣) المرجع السابق: ٧٧٤/١.

المبحث الثالث:

علم البلاغة والتأليف فيه

أولاً: المقصود بعلم البلاغة.

عرف ابن خلدون (علم البلاغة) بأنه: الفن الذي يحصل به ((معرفة الشروط والأحكام، التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى الحال)). ((وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة اسقريت من لغة العرب، وصارت كالقوانين))[1]. ويرى أن ((قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية قياسية، تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس. وهو قياس علمي صحيح مطرد. كما هو قياس القوانين الإعرابية))[2].

ثانيًا: علوم البلاغة.

تناول ابن خلدون تصنيف البلاغيين لعلم البلاغة إلى ثلاثة أصناف: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

وأشار إلى أن بعض البلاغيين يطلقون على الأصناف الثلاثة اسم (البيان)، وهو اسم للصنف الثاني. وقد أشار القزويني (ت ٧٣٩هـ) من قبل إلى هذا، ولم يبين السبب[3]، إلا أن ابن خلدون ذكر أن السبب في ذلك كون الأقدمين أول ما تكلموا في أساليب علم البيان[4].

ويكون هذا التعليل متوجهًا لو كانت علوم البلاغة مصنفة من قبل. وأقرب منه ما علل به ابن يعقوب المغربي (ت ١١٢٨هـ) بأن البيان هو: المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير، وجميع الفنون لها تعلق به[5].

---

(١) المرجع السابق: ٧٩٩/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٨٨/١.

(٣) الإيضاح، للقزويني: ١٥١/١.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٧٦١/١.

(٥) مواهب الفتاح، لابن يعقوب: ١٥١/١.

وفي حديثه عن وظائف علوم البلاغة ذكر ابن خلدون أن علم المعاني يبحث في أحوال التركيب وهيئاته التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال. وبهذا العلم تحصل الإفادة لمقتضى الحال. ((ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال التفنن في انتقال التركيب بين المعاني بأصناف الدلالات، لأن التركيب يدل بالوضع على معنى، ثم ينقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه... ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل في الإفادة وأشد، لأن في جميعها ظفرًا بالمدلول من دليله. والظفر من أسباب اللذة)). وهذا العلم الذي ((يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه)) هو علم البيان. ويرى ابن خلدون أن علم البيان شقيق علم المعاني المفيد لمقتضى الحال؛ لأن قوانينه راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها، وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنفسها من حيث الدلالة. واللفظ والمعنى متلازمان متضايفان. وعلى هذا فإنه يحصل بهذين العلمين ما يقصد إليه المتكلم بأن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة[1].

وبناء على هذا التقرير فإن علمي المعاني والبيان عند ابن خلدون ((هما جزء البلاغة، وبهما كمال الإفادة))[2].

وأما علم البديع فهو تابع لهما وملحق بهما، فينظر فيه بعد كمال الإفادة. وهو يتناول ضروبًا من التحسين و التزيين، يحصل بها للكلام رونق ولذة في الأسماع وحلاوة وجمال، كلها زائدة على الإفادة[3].

وهذه النظرة إلى البديع هي ما قرره كثير من البلاغيين المتأخرين صراحة منذ الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، حينما حدد للبديع مفهومًا يميزه عن علمي المعاني

---

(١) ينظر فيما سبق: تاريخ ابن خلدون: ١/٧٩٩-٨٠٠.

(٢) المرجع السابق: ١/٨٠٠.

(٣) المرجع السابق: ١/٨٠٠-٨٠١.

والبيان، فقال: ((هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة))[1].

وتعريف القزويني (ت ٧٣٩هـ) يفهم منه أن تحسين الكلام لا يكون إلا لهذه الوجوه، وأن تحسينها تحسين عرضي، لا تحسين ذاتي، لأن وصف البلاغة حصل للكلام بمراعاة أحوال اللفظ على ما يقتضيه الحال كما في علم المعاني، ومراعاة وضوح الدلالة على ما هو في علم البيان، وأما هذه المحسنات البديعية فتأتي بعد الحسن الذاتي لتزيد الكلام حسنًا وقبولاً، وقد قال القزويني (ت ٧٣٩هـ) بعد أن عرف بلاغة الكلام: ((وإذ قد عرفت معنى البلاغة في الكلام وأقسامها ومراتبها، فاعلم أنه يتبعها وجوه كثيرة غير راجعة إلى مطابقة مقتضى الحال ولا إلى الفصاحة، تورث الكلام حسنًا وقبولاً))[2]، قال التفتازاني (ت ٧٩٢هـ) في شرح التلخيص: ((وفي قوله: يتبعها، إشارة إلى أن تحسين هذه الوجوه للكلام عرضي خارج عن حد البلاغة))[3].

وقد أخرج القزويني (ت ٧٣٩هـ) المحسنات البديعية عن حد البلاغة منذ أن عقد لكتابه (الإيضاح) مقدمة عنون لها بـ(الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة، وانحصار علم البلاغة في علم المعاني والبيان)[4]، وصرح التفتازاني (ت ٧٩٢هـ) من بعده بأن المحسنات البديعية خارج البلاغة[5].

وذكر ابن خلدون أن كثيرًا من البلاغيين يجعلها مندرجة في البلاغة على أنها غير داخلة في الإفادة[6].

---

(١) التلخيص، للقزويني: ٨٦، والإيضاح، له: ٤/ ٢٨٢.

(٢) الإيضاح، للقزويني: ١/ ١٤٠.

(٣) المختصر على التلخيص، للتفتازاني: ١/ ١٤١.

(٤) الإيضاح، للقزويني: ١/ ٦٥.

(٥) المختصر على التلخيص، للتفتازاني: ١/ ١٣٢.

(٦) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٨٠٢.

وهذا فيه تناقض. فالبلاغيون حينما عرفوا بلاغة الكلام بأنها مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، فمعنى ذلك أن أساليب البلاغة كلها داخلة في هذا التعريف، ويراعى فيها مطابقة مقتضى الحال، سواء منها ما تعلق بالمعاني أو البيان أو البديع. وإلا كيف يُدخل في البلاغة ما ليس منها؟!

ولما عرف القزويني (ت ٧٣٩هـ) علم المعاني بأنه ((علم يعرف به أحوال اللفظ العربي، التي بها يطابق مقتضى الحال))[١] تعقبه بعض البلاغيين بأن هذا التعريف يقصر المطابقة على المعاني دون فنون البيان والبديع. والقزويني (ت ٧٣٩هـ) فسر مقتضى الحال بالاعتبار المناسب. ولا شك أن فنون البيان والبديع إذا اقتضاها الحال بالاعتبار المناسب فهي داخلة فيه، كما ذكر الخطيبي (ت ٧٤٥هـ)[٢]. وقال المراغي (ت١٣٧١هـ): ((إن الثمرة المستفادة من علم المعاني -وهو معرفة أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال- تستفاد أيضًا من علم البيان والبديع؛ لأنا لا نعبر باستعارة ولا كناية إلا إذا اقتضاها المقام. فنوازن بين عدة تعبيرات، ونرى أنسبها للحال بمراعاة حال السامع أو السامعين، فنعبر به))[٣].

ومع تلك النظرة إلى المحسنات البديعية فإن ابن خلدون ينبه إلى أنه يصار إليها عفوًا من غير تكلف لها، ولا استكثار منها. فكلاهما عيب يستهجن في الكلام. كما أن ((تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فتخل بالإفادة من أصلها، و تذهب بالبلاغة رأسًا، ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات))[٤].

وأنكر على الذين يتكلفون البديع، حتى إنهم يخلون بالإعراب والتصريف من أجله، ويعلل فعلهم بقصورهم عن إعطاء الكلام حقه في مراعاة مقتضى الحال. فيجبرونه

---

(١) تلخيص المفتاح، للقزويني: ١٠.

(٢) ينظر: مفتاح تلخيص المفتاح، للخطيبي: ٧٠، وعروس الأفراح، للسبكي: ١/١٥٩.

(٣) تاريخ علوم البلاغة، للمراغي: ١١٥-١١٧، وكلام عبد القاهر تصرف فيه. وهو في دلائل الإعجاز: ٧٢-٧٣. وينظر: مقتضى الحال في الأسلوب القرآني، للطلحاوي: ٦٥-٦٨.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ١/٨٠٢.

بالتزيين بالبديع. قال: ((وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوته. وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية، ويغفلون عما سوى ذلك. وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد، حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس، ويدعون الإعراب، ويفسدون بنية الكلمة، عساها تصادف التجنيس))[1].

وقد سبقه إلى هذا التنبيه جمع من البلاغيين والنقاد. فعبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) يرى أن مدار الحسن والقبح في المحسنات إنما هو على المعاني، قال: ((وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب))[2]. وقال بعد أن ذكر أمثلة للجناس المعيب الخالي من الفائدة، وأمثلة للحسن المشتمل عليها: ((تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة، أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن))[3]. وحتى القزويني (ت ٧٣٩هـ) قال في شأن المحسنات اللفظية: ((وأصل الحسن في جميع ذلك -أعني القسم اللفظي- كما قال الشيخ عبد القاهر، هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني، فإن المعاني إذا أرسلت على

---

(١) المرجع السابق: ٧٨٢/١-٧٨٣.

(٢) أسرار البلاغة: ٢٠.

(٣) أسرار البلاغة: ٨.

سجيتها وتركت وما تريد طلبت لأنفسها الألفاظ، ولم تكتس إلا ما يليق بها، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب:

إذا لَمْ تُشاهِدْ غيرَ حُسنِ شِياتِها وأعضائِها فالحُسنُ عَنكَ مُغَيَّبُ[1]

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبَه فرطُ شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع، على أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيل إليه أنه إذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع طلبه في خبط عشواء))[2].

ومع أن هذا التنبيه من القزويني وابن خلدون يعد جوهريًا مهمًا في النظر إلى المحسنات البديعية وتناولها، إلا أن تعريف علم البديع والطريقة العقلية في تناول المحسنات تؤدي إلى غير ما ذكر هنا[3].

ثالثًا: التأليف في علم البلاغة.

تناول ابن خلدون نشأة علم البلاغة، وعرض لتطور التأليف فيه من خلال هذه الإشارات الموجزة:

١- هذا العلم حادث في الملة بعد علمي اللغة والنحو.

٢- بدأ التأليف فيه بإملاءات غير وافية، كما هو عند جعفر بن يحيى (ت ١٧٨هـ)، والجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، وأمثالهم. ويرى ابن خلدون أن الجاحظ كان كتابه سببًا في تنبه الناس لموضوع علم البلاغة، وإفراده عن سائر العلوم، وتأليف الكتب فيه، بعد تأليفه كتاب "البيان والتبيين" الذي جمع فيه مسائل بلاغية كثيرة.

---

(١) ديوان المتنبي بشرحه "العرف الطيب" لليازجي: ٢/٣٣٧. وقال الشارح: ((الشيات: الألوان... يقول: إذا لم تر من الخيل إلا ما يظهر لك من حسن ألوانها وأعضائها فقد غابت معرفة حسنها عنك. يعني أن حسنها فيما وراء ذلك من جريها وطباعها)).

(٢) الإيضاح، للقزويني: ٤/٤٦٧. وكلام عبد القاهر في أسرار البلاغة: ٩ و١٤.

(٣) ينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، للعليوي: ٦٠٦-٦١٠.

٣- كانت مسائله متفرقة في كتب النحو، فاستقرأها عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، وجمع منها.

٤- ثم جاء السكاكي (ت٦٢٦هـ) فمحض زبدته، وهذب مسائله، ورتب أبوابه، في كتابه "المفتاح" الذي جعل هذا الفن من بعض أجزائه.

٥- ثم أخذ المتأخرون هذا الفن من كتاب السكاكي (ت٦٢٦هـ)، ولخصوه في ملخصات متداولة، كما فعله الطيبي (ت٧٤٣هـ) في كتاب (التبيان)، وابن مالك (ت٦٨٦هـ) في كتاب (المصباح)، وجلال الدين القزويني (ت٧٣٩هـ) في كتاب (التلخيص)، والعناية بالأخير عند أهل المشرق في الشرح والتعليم أكثر من غيره[١].

هذه إشارات سريعة كما جاءت عند ابن خلدون في الحديث عن تطور علم البلاغة. وللتوسع في نشأة العلم يرجع إلى ما كتبه المحدثون فيها[٢]، لكني أتوقف عند ما ذكره ابن خلدون من تأليف جعفر بن يحيى (١٧٨هـ) في البلاغة. فإن جعفراً معدود من ذوي الفصاحة والبلاغة، إلا أني لم أجد من ذكر له تأليفًا في البلاغة. وإن كان نُقل عنه إشارات بلاغية[٣].

ولحظ ابن خلدون أن ((المشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة))، ويعلل ذلك بأمرين:

الأول: ((أنه -فن البلاغة- كمالي في العلوم اللسانية. والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران، والمشرق أوفر عمرانًا من المغرب)).

الثاني: ((العناية العجم -وهم معظم أهل المشرق- بتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن، وهو أصله))[٤].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٦١/١-٧٦٢.

(٢) ينظر على سبيل المثال: البيان العربي، للدكتور بدوي طبانة، والبلاغة تطور وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف.

(٣) ينظر: البيان والتبيين، للجاحظ: ١/ ٥، ١٠٥، ١٠٦، ١١١، ١١٥، والعمدة، لابن رشيق: ٢٤٢/١.

(٤) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٢/١.

وأما المغاربة فكانت عنايتهم أكثر بعلم البديع خاصة ((وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقابًا، وعددوا أبوابًا، و نوّعوا أنواعًا، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب... و ممن ألف في البديع من أهل أفريقية: ابن رشيق، وكتاب "العمدة" له مشهور، وجرى كثير من أهل أفريقية والأندلس على منحاه)). ويرى ابن خلدون أن الذي حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وعلم البديع سهل المأخذ، وهم صعبت عليهم مآخذ المعاني والبيان؛ لدقة أنظارهما وغموض معانيهما، فتجافوا عنهما[1].

وهذا حكم أغلبي، وإلا فالمؤلفات البلاغية التي وصلتنا من علماء المغرب تناولت أساليب البيان والمعاني مع البديع، وإن سمي بعضها بـ"البديع". وقد ذكر القزويني (ت٧٣٩هـ) أن بعضهم يسمي علوم البلاغة: علم البديع، وعلل ابن يعقوب المغربي (ت١١٢٨هـ) ذلك بأن البديع هو الشيء الذي يستحسن؛ لظرافته وغرابته وعدم وجود مثاله من جنسه، وهذه العلوم كذلك[2]. زاد الدسوقي (ت١٢٣٠هـ): ((أو لأنه يعرف بها أمور مبتدعة بالنسبة إلى تأدية أصل المراد الذي يعرفه الخاصة والعامة))[3].

ومصطلح "البديع" في التأليف البلاغي بدأ مبكرًا، ولم يكن منفكًا عن الدلالة اللغوية[4]. فكان يطلق على ما أحدثه الشعراء من فنون بلاغية وصور بيانية، ادعي أنهم استحدثوها.

وألف بعض النقاد كتبًا في إثبات سبق المتقدمين لهذه الأساليب والصور. وإن كانت كثرت عند المتأخرين، كما فعل ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) في كتابه (البديع)، وهو أول مؤلف يصل إلينا باسم (البديع)، تناول فيه جملة من فنون البلاغة المتنوعة التي لا يختص بها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر: مواهب الفتاح، لابن يعقوب: ١/١٥١.

(٣) حاشية الدسوقي على شرح السعد: ١/١٥١.

(٤) ترد المادة (ب د ع) في اللغة دالة على معاني: الجدة، والحداثة، والاختراع لما لم يكن، والعَجَب، وبلوغ الغاية في الشيء. ينظر: لسان العرب، لابن منظور: ٨/ ٦.

(علم البديع). ثم توالت المؤلفات بعد ابن المعتز في فنون البلاغة، ومنها ما يحمل اسم (البديع)، مما يعني أن هذا المصطلح يتناول فنون البلاغة جميعًا.

ومن المؤلفات المغربية التي حملت اسم "البديع" أو تعلقت به: "البديعية" لشرف الدين التيفاشي (ت٦٥١هـ)، و"المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" للقاسم السجلماسي (بعد ٧٠٤هـ)، و"الروض المريع في صناعة البديع" لابن البناء العددي (ت٧٢١هـ)، و"أنوار التجلي على ما تضمنته قصيدة الحلي" لأبي محمد الفاسي (ت٧٨٩هـ)، وهو شرح لبديعية صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ).

وهذه المؤلفات ليست مختصة بـ"علم البديع"، بل تناولت أساليب البلاغة على اختلاف علومها.

ومن المؤلفات المغربية التي اختصت بالبلاغة أو عنيت به: "العمدة" لابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، و"التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات" لابن عميرة (ت٦٥٨هـ)، وكتابه ألفه ردًا مختصرًا على كتاب الزملكاني "التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن". و"منهاج البلغاء وسراج الأدباء" لحازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)، و"ضوء الصباح على ترجيز المصباح" لابن أبي زيد المراكشي (ت٨٠٧هـ).

وإنما ذكرت المؤلفات التي سبقت وفاة ابن خلدون عام (٨٠٨هـ).

ومع أن تلكم المؤلفات لها شأن وأثر في التأليف البلاغي في المغرب والمشرق، إلا أنها قليلة بالنسبة إلى التأليف البلاغي في المشرق، لكنها تشهد بعناية المغرب بالبلاغة وفنونها، إلا أن العناية أكثر -كما ذكر ابن خلدون- لفنون البديع، وهو رأي انتهى إليه الدكتور عبدالله المفلح بعد دراسته "البحث البلاغي في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين". فذكر من نتائج الدراسة: ((لم يكن حرص المغاربة على علمي المعاني والبيان كحرصهم على علم البديع، فقد درسوا فنونًا كثيرة منه، وأعطوها اهتمامًا بالشرح والتحليل والتقسيم أكثر من غيرها))[1].

---

(١) البحث البلاغي في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، لعبدالله المفلح، رسالة "ماجستير" لم تنشر: ٣٣د.

المبحث الرابع:

الحاجة إلى علم البلاغة

تناول ابن خلدون في مواضع متفرقة أهمية علم البلاغة وثمرته وصلته ببعض العلوم مما يبين حاجة أهلها إليه، ومن ذلك:

١- فهم الإعجاز القرآني.

تعد بلاغة القرآن من أعظم وجوه الإعجاز. ويكاد هذا الوجه يكون هو مناط التحدي في إعجاز القرآن الكريم، لجريانه في جميع القرآن سوره وآياته، بخلاف الوجوه الأخرى فإنها تظهر في بعضه دون بعض.

ولقد عني علماء الإعجاز بهذا الوجه أكثر من غيره، واهتموا به، فدونوا في مؤلفاتهم كثيرًا من الأساليب والملحوظات والأفكار البلاغية، حتى أصبح معظم الكتب المؤلفة في الإعجاز القرآني مصادر بلاغية، كرسالة الخطابي (ت٣٨٨هـ) في إعجاز القرآن، و"النكت في إعجاز القرآن" للرماني (ت٣٨٤هـ)، و"إعجاز القرآن" للباقلاني (ت٤٠٣هـ)، و"البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن" للزملكاني (ت٦٥١هـ)، وغيرها من الكتب.

ثم صار البلاغيون يؤلفون مؤلفاتهم البلاغية لتكون وسيلة لفهم الإعجاز القرآني. كما تدل عليه عناوين هذه المؤلفات: "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، و"نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" للفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، و"الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" للعلوي (ت٧٤٩هـ)، وغيرها من المؤلفات[1].

وابن خلدون في مقدمة تاريخه يقرر أن إعجاز القرآن في بلاغته، التي بلغت الغاية في مطابقة مقتضى الحال، ولكي يدرك المرء شيئًا من الإعجاز القرآني فهو محتاج إلى اكتساب البلاغة وتعلمها. ويكاد ابن خلدون يقصر ثمرة علم البلاغة على فهمه، قال: ((اعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام

---

(١) ينظر: التوجيه البلاغي لآيات العقيدة، للعليوي: ٢٢-٢٣.

فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها. وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته. فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه))[1].

وقد يظن ظان أن ابن خلدون يقول بالإعجاز بـ"الصرفة" في قوله: ((أما أهل أفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة. وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة، لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله. فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه. والاحتذاء بها))[2].

و"الصرفة" التي جعلها بعض المعتزلة وجهًا لإعجاز القرآن تعني أن الخلق يقدرون على الإتيان بمثله إلا أن الله صرفهم عن ذلك. وهو قول باطل[3].

وابن خلدون صرح في قوله السابق أن الإعجاز في بلاغته، وليس في قوله اللاحق تصريح بأن الإعجاز بالصرفة. مما يدل على أن مقصود ابن خلدون بقوله: (مصروفون) أي أنهم يعجزون عن الإتيان بمثله. وهذا ما يفيده سياق كلامه. والله أعلم.

٢- تفسير القرآن الكريم.

يبين ابن خلدون سبب الحاجة إلى علم البلاغة في تفسير القرآن الكريم. قال: ((اعلم أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم. فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه... ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الإعراب والبلاغة في التراكيب، فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب، لا يرجع فيها إلى نقل ولا كتاب. فتنوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب أهل اللسان. فاحتيج إلى ذلك في تفسير القرآن، لأنه بلسان العرب وعلى منهاج

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٦٢/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٤١/١.

(٣) ينظر في الصرفة، وبيان بطلانها: القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد. للدكتور عبدالرحمن الشهري.

بلاغتهم))[1]. وفي حديثه عن أصناف العلوم وترتيب النظر فيها قال: ((النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية، لأنه متوقف عليها))[2].

ولهذه الثمرة والتي قبلها يرى ابن خلدون أن المفسرين هم ((أحوج ما يكون إلى هذا الفن))[3].

وأشار إلى أن أكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه، حتى ألف الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تفسيره "الكشاف" وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه، وأنه انفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير[4].

إلا أن هذا الفضل لم يخل منه من سبق الزمخشري في تفسير القرآن الكريم، كأبي جعفر الطبري (٣١٠هـ) في تفسيره: جامع البيان في تأويل آي القرآن.

ونبه ابن خلدون إلى أن الزمخشري ((من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة))[5]. وحذر من النظر في كتابه ما لم يكن الناظر ممن ((أحكم عقائد السنة، وشارك في هذا الفن بعض المشاركة، حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنه بدعة، فيعرض عنها، ولا تضر في معتقده، فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من الإعجاز، مع السلامة من البدع و الأهواء))[6].

٣- استنباط الأحكام الشرعية.

وهذا من حاجة الفقيه، وقد نبه ابن خلدون في أكثر من موضع إلى أهمية البلاغة للفقيه في استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث، فبعد أن عقد فصلاً (في

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٥٥٣/١-٥٥٤.

(٢) المرجع السابق: ٥٥٠/١.

(٣) المرجع السابق: ٧٦٢/١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق: ٥٥٥/١-٥٥٦.

(٦) المرجع السابق: ٧٦٣/١.

علوم اللسان العربي) وذكر منها البيان (البلاغة) قال: ((ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة؛ إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها في الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة))[١]. وفي حديثه عن الفقه وأصوله ذكر الحاجة إلى علوم النحو والتصريف والبيان وقال: ((حين كان اللسان ملكة لأهله لم تكن هذه علوماً ولا قوانين، ولم يكن الفقه حينئذ يحتاج إليها؛ لأنها جبلة وملكة. فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة، وصارت علوماً يحتاج إليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى))[٢].

٤- حاجة الكتّاب والموقِّعين.

في حديثه عن "ديوان الرسائل والكتابة" عرض ابن خلدون إلى حاجة الكتاب إلى البلاغة، وبين ابتداءً أن وظيفة الديوان في الملك غير ضرورية. ((وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد، فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بما بلغ من العبارة اللسانية في الأكثر))[٣].

كما تناول من أنواع الكتابة عند السلطان: التوقيع، وبين المقصود به قائلاً: ((هو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان، بأوجز لفظ وأبلغه))[٤]. ثم ذكر حاجة الموقع إلى البلاغة فقال: ((ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه، وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد، ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها؛ للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل: إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار، وهكذا كان شأن

---

(١) المرجع السابق: ٧٥٣/١.
(٢) المرجع السابق: ٧٥٧/١.
(٣) المرجع السابق: ٣٠٦/١.
(٤) المرجع السابق.

الدول. و اعلم أن صاحب هذه الخطة لا بد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم، من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل، مع ما يضطر إليه في الترسيل، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها))[1].

٥- التأثير في المخاطَب.

إذا كان المتكلم يقصد بخطابه ((أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة)) كما قال[2]. وإذا كان ((الكلام الذي هو العبارة والخطاب. إنما سره وروحه في إفادة المعنى. وأما إذا كان مهملاً فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة))[3] فإن المتكلم -أي متكلم- محتاج إلى اكتساب البلاغة وتعلمها؛ ليحقق بذلك البلاغة التي تثمر ((إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ))[4]. فيكون خطابه أوقع وأقنع وأمتع. وبذلك يحصل كمال الإفادة التي يراها ابن خلدون سر البلاغة وروح الخطاب. وقد قال الباقلاني (ت٤٠٣هـ): ((إذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج. ويقلق ويؤنس. ويطمع ويؤيس. ويضحك ويبكي. ويحزن ويفرح. ويسكن ويزعج. ويشجي ويطرب. ويهز الأعطاف. ويستميل نحوه الأسماع. ويورث الأريحية والعزة. وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً. ويرمي السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً. وله مسالك في النفوس لطيفة. ومداخل إلى القلوب دقيقة. وبحسب ما يترتب في نظمه. ويتنزل في موقعه. ويجري على سمت مطلعه ومقطعه. يكون عجيب تأثيراته وبديع مقتضياته))[5].

---

(١) المرجع السابق: ١/٣٠٦-٣٠٧.

(٢) المرجع السابق: ١/٨٠٠.

(٣) المرجع السابق: ١/٧٩٩.

(٤) النكت في إعجاز القرآن، للرماني: ٧٥.

(٥) إعجاز القرآن، للباقلاني: ٤١٩.

المبحث الخامس:

الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية

من القضايا التي أثارها ابن خلدون: الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية، من شعر، ونثر، والتمايز والتداخل فيما بينها.

وهو يرى أن لكل فن أساليب يختص بها ويتميز دون غيره، قال بعد أن ذكر جملة من فنون الشعر والنثر: ((واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله، ولا تصلح للفن الآخر، ولا تستعمل فيه))[1]. وقال في موضع آخر: ((إن لكل فن من الكلام أساليب تختص به، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة، فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول... ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال... أو باستبكاء الصحب على الطلل... أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين... ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها... أو بالدعاء لها بالسقيا... أو سؤاله السقيا لها من البرق... أو مثل التفجع في الجزع باستدعاء البكاء... أو باستعظام الحادث... أو بالتسجيل على الأكوان بالمصيبة لفقده... أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات... أو بتهنئة قريعه بالراحة من ثقل وطأته))[2]. وهذا استقصاء من ابن خلدون يدل على قدرة عالية على البحث والاستقراء.

ويرى أن الشعر مبني على الاستعارة والأوصاف، فإذا خلا منها فإنه في الغالب ليس بشعر. ويرى أن الكلام المرسل الذي لم يقيد بسجع ولا غيره يستعمل في الخطب والدعاء والمخاطبات السلطانية وترغيب الجمهور وترهيبهم. وأن النسيب يختص بالشعر، والحمد يكون في الخطب، والدعاء يكون في الخطب وفي المخاطبات (الرسائل)[3].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧٨١/١.

(٢) المرجع السابق: ٧٨٦/١-٧٨٧.

(٣) ينظر: المرجع السابق: ٧٨١/١، ٧٨٢، ٧٨٩.

وينكر على من تتداخل عنده الفنون فيستعمل خصائص فن في فن آخر، منطلقًا من القاعدة البلاغية: مراعاة مقتضى الحال. قال: ((وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور، من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض. وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة، واستعملوها في المخاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه، وخلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتناسوه، وخصوصًا أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب. وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه إذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات، حيث لا تدعو ضرورة إلى ذلك في الخطاب. والتزام التقفية أيضًا من اللوذعة والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه))[1].

وعلى هذا فإن نوع الفن الأدبي يعد موجهًا للأديب في صياغة أدبه واختيار أساليبه، وهو بذلك حال من الأحوال التي يراعيها المتكلم، كما يراعيها الناقد في نقده.

وقد نقد بعض الباحثين عدم تعرض البلاغيين المتأخرين لمراعاة مقتضى الحال في فنون القول، فقال الدكتور فتحي فريد: ((من وجوه الضيق أيضًا في تفسير البلاغيين المتأخرين لموضوع البلاغة، وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، عدم اتساع ذلك التفسير واشتماله لوجوه القول المتنوعة من شعر وخطابة وحوار وكتابة وغيرها، مما أوحى بضيق البلاغة وعزلتها، وأوهم انحصارها في علومها الثلاثة، ولا سيما علم

---

(1) المرجع السابق: ٧٨١/١-٧٨٢.

المعاني الذي يبحث في وجوه المطابقة لمقتض الحال. ولما كانت البلاغة وثيقة التعلق بالأدب كما عرفت، والأدب متنوع الفنون، ولكل فن ما يناسبه من ألفاظ وأفكار وموضوعات. فكان ضروريًا أن يتضمن تفسير البلاغيين لموضوع البلاغة الأحوال التي تخص كل فن من فنون الأدب، وما يناسب تلك الأحوال))[1].

وهذه القضية أشار إليها البلاغيون والنقاد من قبل. فقد ذكر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) أن ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) سئل عن البلاغة فقال: ((البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل)) ثم أشار إلى ما تشترك فيه من خصائص بلاغية وما تختلف فيه، فقال: ((فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال))[2].

وللجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في كتابه "البيان والتبيين" اهتمام بفنون القول من شعر وخطابة ورسائل، وإشارات إلى خصائصها والتمايز بينها[3].

ونجد وضوحًا لهذه القضية في كتاب "البرهان في وجوه البيان" لابن وهب الكاتب (ت ٣٣٥هـ). فقد عقد أبوابًا في فنون الكلام، تناول فيها أجناس الشعر والنثر. وما تشترك فيه، وما تختص به، ومما قال: ((اعلم أن سائر العبارة في كلام العرب إما أن يكون منظومًا، وإما أن يكون منثورًا. والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام.

فالشعر ينقسم أقسامًا، منها: القصيد... ومنها: الرجز... ومنها: المسمّط... ومنها: المزدوج...))[4]. ((وللشعراء فنون من الشعر كثيرة، تجمعها في الأصل أصناف أربعة:

---

(١) المدخل إلى دراسة البلاغة، لفتحي فريد: ١١١. وينظر: رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، للعليوي: ١٥٠.

(٢) البيان والتبيين، للجاحظ: ١/١١٦.

(٣) المرجع السابق: ٤/١٠٧-١٠٩.

(٤) البرهان في وجوه البيان، لابن وهب: ١٦٠-١٦١.

المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو. ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون...))[1]. ((وأما المنثور فليس يخلو من أن يكون خطابة، أو ترسلاً، أو احتجاجًا، أو حديثًا. ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه... وقد ذكرنا المعاني التي يصير بها الشعر حسنًا وبالجودة موصوفًا. والمعاني التي يصير بها قبيحًا مرذولاً... فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف جيد الشعر فاستعمله في الخطابة والترسل. وكل ما قلناه من معايبه فتجنبه هاهنا. ثم إنه يخص الخطابة والترسل أشياء، نحن نذكرها...))[2].

ونقل أبو حيان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ) عن شيخه أبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي (ت نحو ٣٨٠هـ) تفريقه في البلاغة بين فنون الأدب وأنواع الكلام، قال: ((البلاغة ضروب: فمنها بلاغة الشعر، ومنها بلاغة الخطابة، ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل)). ثم بيّن ما تختص به كل بلاغة منها[3].

وأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) ألف كتابه "الصناعتين"، وجعله ((مشتملاً على جميع ما يُحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده))[4]. ويدلك عنوانه وهدفه على إرادة التمييز بين النظم والنثر. وفي الباب الثالث منه تحدث عن (معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ) وتناول في فصلين ما يختص به النظم، وما تختص به أنواع النثر من الخطب، والرسائل على اختلاف أنواعها. وجعل الفصل الأول (في كيفية نظم الكلام، والقول في فضيلة الشعر، وما ينبغي استعماله في تأليفه)، والفصل الثاني (فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته).

---

(١) المرجع السابق: ١٧٠.

(٢) المرجع السابق: ١٩١-١٩٢.

(٣) الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي: ٢/ ١٤٠-١٤٣.

(٤) كتاب الصناعتين، للعسكري: ٥.

وابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ) يؤلف كتابه "تحرير التحبير". الذي جمع فيه محاسن الكلام وفنون البديع التي ذكرها من سبقه من العلماء، وزاد عليها. وذكر أن منها ما يخص الشعر. ومنها ما يخص النثر، ومنها ما يعمهما وكتاب الله ﷻ[١].

وضياء الدين ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) يؤلف كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" وهو ككتاب "الصناعتين" في عنوانه، يدلك على تمييز أدب الكاتب عن أدب الشاعر. وقد ختم كتابه في (الفرق بين الكتابة والشعر)[٢]. كما أشار إلى الفرق بين المكاتبات والمقامات، دفعه إلى ذلك حديثه عن اختلاف الأدباء في الإجادة في أغراض الشعر وأنواع النثر. وأن الحريري كان صاحب مقامات ولم يكن صاحب مكاتبات[٣].

وقد اختصت بعض مؤلفات الأقدمين بالحديث عن الشعر وخصائصه ونقده، وأخرى بالحديث عن الكتابة وخصائصها وآدابها. ففي الشعر من المؤلفات: "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ)، و"الشعر والشعراء" لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، و"عيار الشعر" لابن طباطبا (ت٣٢٢هـ)، و"نقد الشعر" لقدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ)، و"العمدة في محاسن الشعر وآدابه" لابن رشيق (ت٤٥٦هـ). وفي الكتابة من المؤلفات: "أدب الكاتب" لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، و"أدب الكتّاب" للصولي (ت ٣٣٥هـ)، و"مواد البيان" لعلي بن خلف الكاتب (ق٥)، و"قانون ديوان الرسائل" لعلي بن منجب الصيرفي (ت٥٤٢هـ)، و"إحكام صنعة الكلام" للكلاعي (ق٦)، على أن كثيرًا مما في هذه المؤلفات لا يتحدث عن الخصائص الأسلوبية، لكنه يتناولها.

وسؤال التمايز بين الأجناس الأدبية مطروح في التراث العربي، وقد ذكر ابن الأثير أنه وقف على كلام لأبي إسحق الصابي في الفرق بين الكتابة والشعر. قال: ((وهو جواب لسائل سأله))[٤]. والمرزوقي (ت٤٢١هـ) في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام. قال: ((ثم

---

(١) تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع: ٩٥.

(٢) المثل السائر، لابن الأثير: ٤/ ٥.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٣٨-٣٩.

(٤) المرجع السابق: ٤/ ٥.

سألتني عن شرائط الاختيار فيه [يعني: الشعر]. وعما يتميز به النظم عن النثر... ولماذا كان أكثر المترسلين لا يفلقون في قرض الشعر؟ وأكثر الشعراء لا يبرعون في إنشاء الكتب؟... ونظام البلاغة يتساوى في أكثره المنظوم والمنثور))[1].

وتتنوع معايير التمييز بين أجناس الأدب في التراث العربي، بين الأساليب البلاغية، والصياغة اللغوية، وبنية النص، والطول والقصر، والوظائف، والأغراض، والموضوعات، والأدوات والآلات التي يحتاج إليها كل من الشاعر والكاتب.

ولو استقرأنا حديث البلاغيين والنقاد المتقدمين في خصائص "الأجناس الأدبية" لطال بنا المقام، وهو حديث يحتاج إلى عناية وتتبع وتصنيف.

وإن كان المحدثون لهم عناية بهذه القضية -الأنواع الأدبية- والخصائص البلاغية والأسلوبية والبنائية التي يتميز بها كل نوع، وما يتعلق بهذه القضية من تساؤلات حول نشأة الأنواع وأزليتها وثباتها وتحولها ووحدتها وتداخلها وأسباب تنوعها وكيفية دراستها، وغير ذلك، خاصة مع تنوع الأجناس الأدبية والأساليب الإبداعية وسرعة تطورها وتحولها، في زمن أصبحت الحرية والتغيير والثورة لغة ثقافية سائدة، وقد تأثر الدارسون العرب في ذلك بالنقد الغربي الذي عني بهذه القضية منذ زمن ما بين مؤيد وناقد، حتى صار ما يعرف بنظرية الأنواع الأدبية (الفنون الأدبية، الأجناس الأدبية، تجنيس الأدب)[2].

* * *

---

(1) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي: ١/٣، د.

(2) ينظر من الدراسات التي تناولت تجنيس الأدب: "الأدب وفنونه" لمحمد مندور، و"النقد الأدبي الحديث" لمحمد غنيمي هلال، و"الأدب وفنونه" لعز الدين إسماعيل، و"مقدمة في نظرية الأدب" لعبد المنعم تليمة، و"نظرية الأنواع الأدبية في النقد العربي" لموسى محمد خير الشيخ، و"مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية" لرشيد يحياوي. ومن الكتب المترجمة: "ما الجنس الأدبي؟" لجان ماري شيفر، ترجمة: د. غسان السيد، و"نظرية الأنواع الأدبية" لفانسان، ترجمة: عبدالرزاق الأصفر، و"نظرية الأنواع الأدبية" لفينيست، ترجمة: د. حسن عون.

الخاتمة:

تناول البحث القضايا البلاغية التي تناولها ابن خلدون في مقدمته. وقد تناول من القضايا: مفهوم البلاغة، وعلاقة الفصاحة بها، ووظيفتها، والملكة البلاغية: فائدتها، واكتسابها، وعلم البلاغة والتأليف فيه، والحاجة إلى علم البلاغة، والخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية.

وقد جرى ابن خلدون في مفهومها على ما استقر عليه البلاغيون، من أن حقيقة البلاغة تكون في مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ويعلي ابن خلدون شأن البلاغة بهذا المفهوم، ويعدها أصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته.

ويعد من أوائل من تحدث عن الملكة اللسانية، وفصل القول فيها، حتى عُدّ المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، وليس المُحْدَثون.

ويرى أن حصول الملكة البلاغية له فائدتان: الأولى: القدرة على التكلم بأساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم؛ للتأثير في المخاطب. والثانية: البصر ببلاغة الكلام وصوابه، والقدرة على نقده وتمييز حسنه من رديئه.

ويقرر أن حصول الملكة البلاغية واكتسابها أمر ممكن شأن سائر الملكات.

ويحدد وسائل اكتساب الملكة البلاغية في وسيلتين: الأولى: كثرة الحفظ والاستماع للكلام البليغ الجاري على أساليب العرب. والثانية: كثرة استعمال الكلام البليغ وتكراره، والتعبير على نحو ما حفظه منه.

ويرى أن الملكة البلاغية لا تحصل إلا للعربي، أو لأعجمي النسب، لكنه نشأ بين العرب وتعلم منهم، أما الأعجمي الذي تمكن من لغة قومه وحصل ملكتها فالغالب أنه لا يحصل له الذوق في بلاغة العرب.

وأشار إلى أهمية اكتساب الملكة من الصغر.

ويفرق بين تحصيل الملكة البلاغية وتحصيل علم البلاغة. ويقرر أن تحصيل العلم بقواعده وقوانينه لا يلزم منه تحصيل الملكة. كما أن الملكة البلاغية تحصل من دون

تحصيل علومها. لكنه يبين أن الملكة وإن كانت تفيد صاحبها البصر ببلاغة الكلام، ونقده، إلا أن هذا نقد انطباعي، قد يعجز صاحبه عن الاستدلال له إلا بتحصيل العلم.

وتناول ابن خلدون علوم البلاغة، والتأليف فيها، وليس في كثير مما ذكره بجديد، بل كرر ما ذكره بعض من سبقه من البلاغيين. فهو يرى أن علمي المعاني والبيان هما جزء البلاغة، وبهما كمال الإفادة، وأما علم البديع فهو تابع لهما وملحق بهما، فينظر فيه بعد كمال الإفادة. لكنه ينبه إلى أنه يصار إلى المحسنات البديعية عفوًا من غير تكلف لها، ولا استكثار منها، فكلاهما عيب يستهجن في الكلام. وأنكر على الذين يتكلفون البديع، حتى إنهم يخلون بالإعراب والتصريف من أجله.

ولحظ أن المشارقة على فن البلاغة أقوم من المغاربة، وأما المغاربة فكانت عنايتهم أكثر بفنون البديع خاصة.

وتناول أهمية علم البلاغة وثمرته وصلته ببعض العلوم مما يبين حاجة أهلها إليه، ومن ذلك: فهم الإعجاز القرآني، وتفسير القرآن الكريم، واستنباط الأحكام الشرعية، وحاجة الكتّاب والموقِّعين، والتأثير في المخاطَب.

وفي هذا السياق نبه إلى أن بعض المفسرين كالزمخشري يستثمر أساليب البلاغة في الانتصار لمذهبه الاعتزالي.

ومن القضايا التي أثارها ابن خلدون: الخصائص الأسلوبية للفنون الأدبية، من شعر، ونثر، والتمايز والتداخل فيما بينها، وهو يرى أن لكل فن أساليب يختص بها ويتميز دون غيره، وهو بذلك يمثل امتدادًا لطرح هذه القضية في التراث البلاغي والنقدي.

هذا عرض موجز لجملة القضايا التي عرض لها ابن خلدون في مقدمته وتناولها البحث، وبعض هذه القضايا تحتاج إلى مزيد من العناية والدراسة، كقضية الخصائص البلاغية والأسلوبية لأنواع الكلام وفنون الأدب في التراث البلاغي والنقدي.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

ثبت المراجع:

١- ابن خلدون وليس تشومسكي المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية، للدكتور سعود السبيعي، بحث في مجلة جامعة أم القرى، السنة الثامنة، العدد العاشر، ١٤١٥هـ.

٢- أثر تعلم القرآن الكريم في اكتساب الملكة اللسانية، ليوسف العليوي، بحث ضمن السجل العلمي للملتقى الثالث للجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، إصدار الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمنطقة الرياض، ١٤٢٨هـ.

٣- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٤- إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، د.ت.

٥- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: د.قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، د.ت.

٧- إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: د. حسن حبشي، نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٩هـ.

٨- الإيضاح، للقزويني، ضمن شروح التلخيص، دار السرور، بيروت، د.ت.

٩- البحث البلاغي في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين، لعبدالله المفلح، رسالة "ماجستير" غير منشورة، قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٧هـ.

١٠- البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ.

١١- البلاغة والفصاحة، للدكتور محمد جابر فياض، دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٢- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

١٣- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، المطبعة الخيرية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٠٦هـ.

١٤- تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر". لعبد الرحمن بن خلدون. ضبط: خليل شحادة. مراجعة: د. سهيل زكار. دار الفكر. بيروت. ١٤٢١هـ.

١٥- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها. للمراغي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. الطبعة الأولى. ١٣٦٩هـ.

١٦- تحرير التحبير. لابن أبي الإصبع المصري. تحقيق: د.حفني محمد شرف. لجنة إحياء التراث الإسلامي. الجمهورية العربية المتحدة. د.ت.

١٧- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغربًا. لابن خلدون. مذيلاً بتاريخه= تاريخ ابن خلدون.

١٨- التعريفات. للجرجاني. تحقيق: إبراهيم الأبياري. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ.

١٩- تلخيص المفتاح. للخطيب القزويني. تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٨هـ.

٢٠- التوجيه البلاغي لآيات العقيدة. ليوسف العليوي. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٢٩هـ.

٢١- جوهر الكنز. لنجم الدين ابن الأثير. تحقيق: محمد زغلول سلام. منشأة المعارف. الإسكندرية. د.ت.

٢٢- حاشية الدسوقي على مختصر السعد. ضمن شروح التلخيص. دار السرور. بيروت. د.ت.

٢٣- حسن التوسل إلى صناعة الترسل. لشهاب الدين الحلبي. تحقيق: أكرم عثمان يوسف. دار الرشيد للنشر. بغداد. ١٩٨٠م.

٢٤- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة. للمقريزي. تحقيق: محمود الجليلي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤٢٣هـ.

٢٥- دلائل الإعجاز. لعبد القاهر الجرجاني. تحقيق: محمود شاكر. مكتبة الخانجي. القاهرة. الطبعة الثانية. ١٤١٠هـ.

٢٦- ديوان المتنبي بشرحه "العرف الطيب". شرح: ناصيف اليازجي. دار صادر. بيروت. د.ت.

٢٧- رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين. للدكتور يوسف العليوي. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٣١هـ.

٢٨- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٢٩- سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، تحقيق: علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٣٠- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

٣١- شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٣٢- صحيح البخاري، للإمام البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٣- صحيح مسلم، للإمام مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.

٣٤- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٣٥- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٣٣٢هـ.

٣٦- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، ضمن شروح التلخيص، دار السرور، بيروت، د.ت.

٣٧- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ.

٣٨- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، مطبعة محمود بك في الأستانة، الطبعة الأولى، ١٣٢٠هـ.

٣٩- كيف تغدو فصيحًا عف اللسان؟، للدكتور محمد حسن الطيان، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٠- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.

٤١- المثل السائر، لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٤٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، تحقيق: عبد الله الدرويش، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

٤٣- المجمع المؤسس في المعجم المفهرس. لابن حجر. تحقيق: د. يوسف المرعشلي. دار المعرفة. بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٥هـ.

٤٤- المختصر على تلخيص المفتاح. لسعد الدين التفتازاني. ضمن شروح التلخيص. دار السرور. بيروت. د.ت.

٤٥- المدخل إلى دراسة البلاغة. للدكتور فتحي فريد. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ١٩٨٧م.

٤٦- معجم المصطلحات البلاغية. للدكتور أحمد مطلوب. مطبوعات المجمع العلمي العراقي. ١٤٠٣هـ.

٤٧- مفتاح العلوم. لسراج الدين السكاكي. تحقيق: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الثانية. ١٤٠٧هـ.

٤٨- مفتاح تلخيص المفتاح. لشمس الدين الخطيبي الخلخالي. تحقيق: د. هاشم محمد محمود. المكتبة الأزهرية للتراث. القاهرة. الطبعة الأولى. ٢٠٠٧م.

٤٩- مقتضى الحال في الأسلوب القرآني. للطلحاوي محمد عمر. رسالة "ماجستير" غير منشورة. قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض. ١٤٠٧هـ.

٥٠- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي. لابن تغري بردي. تحقيق: د. محمد محمد أمين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٨٤م.

٥١- مواهب الفتاح. لابن يعقوب المغربي. ضمن شروح التلخيص. دار السرور. بيروت. د.ت.

٥٢- النكت في إعجاز القرآن. للرماني. ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: محمد خلف الله ومحمد سلام. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الرابعة. د.ت.

* * *